صُورة العالِم البربري من خلال كتب الطّبقات الإفريقية (أبو العرب، والمالكي، وابن ناجي).

دة. ابتسام زوايتي*

يتناول هذا العمل بالبحث صُورة العالِم البربري من خلال كتب الطّبقات الإفريقية، وقد اخترنا منها ثلاثة مصادر رئيسية هي: "طبقات أبي العرب"، و"طبقات المالكي"، ثم "طبقات ابن ناجي".

وقد اعتقدنا لأوّل وهلة أن محور اهتمام كتب الطّبقات الإفريقية[1] هم العُلماء الذين عاشوا داخل مجال إفريقية، وبمعنى آخر النّخبة الإفريقية بكلّ مكوّناتها ومنها ذوي الأصول المحليّة البربريّة، إلاّ أنّنا لاحظنا أن النّسبة الأكبر من التّراجم خُصّصت للذين جاؤوا إلى إفريقية ضمن الفاتحين، ثم كلّ الذين أتوا بعدهم في إطار هجرة العرب إلى هذه المنطقة، حتى وإن كانوا من غير العلماء، بينما لم يَخصّ مؤلفو الطّبقات النّخبة المحليّة البربرية سوى بترجمات نادرة قليلة العدد.

وقبل التطرّق إلى فئة العُلماء البربر وصُورتهم كما صاغتها كتب الطّبقات الإفريقية نودّ التوقّف عند بعض المفاهيم منذ البداية، وكذلك تبرير انتقاءنا لهذه المصادر.

فما هو مفهوم الصّورة؟ يَذكُر المالكي: «يُروى عن شيخ ثقة من أهل الإسكندرية أن سليمان بن داود- صلى الله عليهما- أرسل بربريا مع شيطان في حاجة؛ فرجع الشيطان يتعوّذ بالله عز وجلّ من البربر»[2]؛ فمثل هذه الرُّؤية التّقييميّة هي ما يُمكن أن نُسمّيها صُورة.

إذا فالصّورة التي نقصدها هي التمثّلات الرّاسخة في ذهنية فرد تجاه آخر، والتي يقع إنتاجها في شكل إيحاءات ورموز...، وليس من السّهل على القارئ إدراكها إلا بالتّفكير والتمعّن والتّحقيق. وهذه الصّورة تُؤثّر بطريقة واعية أو غير واعية في عملية التّفكير، بل أكثر من ذلك هي تَتحكّم في عمليّة التأليف ذاتها. ونحن على وعي بأن التّاريخ يدوّن وِفق تصوّرات

*أستاذة التعليم العالي- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة منوبة- تونس.

الأفراد وميولاتهم التي هي بدورها وليدة لترسّبات فكريّة وسياسيّة واجتماعيّة مُتوارثة جيلا بعد جيل.

أمّا المصادر فقد اخترنا منها طبقات أبي العرب[3] (ت.333هـ/ 944م)، وطبقات المالكي[4] (ت. بعد 450هـ/1058م)، ثم طبقات الدباغ[5] (ت.699هـ/1300م) وابن ناجي (ت.837هـ/1433م) ذلك لأنها بدت بمثابة مصدر واحد مُكمّل لبعضه البعض من حيث التراجم والسّياق وطريقة التّنظيم، هذا مع قيام كلّ مؤلف من المذكورين بإضافة تراجم عُلماء عاشوا في فترات لاحقة لتلك التي عاشها من سبقه من المؤلفين. إضافة إلى ذلك فإنّ هذه المصادر ذات توجّه سُنّي[6]- وهي مختلفة عن كُتب الطّبقات الإباضية[7] ذات التوجّه الخوارجي التي تُقدّم صورة منحازة للعالِم المحلّي البربري، ومخالفة تماما لما تُقدّمه لنا هذه المصادر السُنّية ذلك لأنها تُترجم أساسا للنخبة العلمية البربرية، فضلا عن أن غالبية مؤلفيها ينتمون إلى أصل بربري- ولذلك اقتصرنا على هذه المصادر حتى نتَبيّن كيفيّة تصويرها للعالِم البربري. كما نلاحظ أن هذه المصادر التي اخترناها ظهرت خلال أربعة قرون مختلفة الظّرفية التّاريخية (القرن الرابع والخامس والسابع والتاسع هجري)، وهو ما يسمح بتوجيه اهتمامنا إلى تَبيّن مدى تطوّر صُورة العالِم البربري أو ثباتها حسب رؤية كل مؤلف طيلة تلك القرون. كذلك يُمثّل مُؤلفو الطّبقات فئة نُخبوية ينتمي البعض منهم إلى النّخبة العلميّة العربية[8]، فهم بالتالي في موقع "الأنا" الغالب وليس "الآخر" المغلوب.

ارتأينا إذا من خلال هذا النّوع من الكتابات إبراز خصوصيّة نظرة مؤلفين يَجمعهم عدد من الروابط المشتركة فيما بينهم، وكذلك مع النّخبة العلميّة البربرية: منها الانتماء الجغرافي لمجال إفريقية والنشأة بها، إضافة إلى الاهتمام بالعلوم الدّينية، وبالتالي ستكون الصّورة هنا من الدّاخل باعتبار أنّنا نتحدث عن نظرة الأنا للأنا: نظرة العالِم العربي لنظيره العالِم البربري.

وقد خالجتنا عدّة أسئلة عن الصّورة التي أمدّنا بها هؤلاء المُؤلفين حول النّخبة العلميّة البربرية: هل هي صُورة ثابتة أم هي صُورة متغيّرة وجزئية تتفاعل مع الظّرفية التّاريخية والواقع السّياسي؟ وماهي خصائص الذّهنيّة العربيّة في تعاملها مع "الآخر" المغلوب، وإلى أيّ مدى كانت ذهنية مُنفتحة أو مُتعالية؟

وقد حاولنا الإجابة عن هذه الأسئلة إلاّ أن ذلك لم يكن ليتهيأ لنا على الوجه المطلوب نظرا لقلّة المعلومات ولنُدرة التّراجم التي يمكن الاستفادة منها في هذا الموضوع، وهي ندرة تمثّل في حدّ ذاتها- إن شئنا- موقفا من هؤلاء المؤلفين إزاء النّخبة البربرية. وقد ارتأينا أن نتوقّف في البداية لتَبيّن مفهوم النّخبة العلميّة حسب هذا الصّنف من المصادر، ثم في مرحلة ثانية الحديث عن صُورة العالِم البربري التي استطعنا التوصّل إليها مع إبراز الاختلافات.

في مفهوم النّخبة العلميّة من خلال كتب الطّبقات الإفريقية: قبل التدّرج إلى الخوض في هذا الموضوع نتوقف في البداية لتتبّع كيفيّة نسج الترجمة عند مؤلفي الطّبقات الإفريقية، حيث أن المقاييس المُعتمدة ستوضّح لنا طبيعة النظرة إلى العُلماء البربر.

اعتمد مؤلفو الطّبقات مقاييس شبه ثابتة في كلّ ترجمة، حيث استُهلّت التّرجمة بذكر اسم صاحبها ومكان ولادته ثم استقراره وشيوخه، ومميّزاته العلميّة وتنقّلاته، وأوصافه وميولاته المذهبية، ووظيفته (الدينية أو العلميّة)، ومكانته الاجتماعية، ثم أخيرا تاريخ وفاته.

إلا أن أهم ما يجلب انتباهنا بالنسبة لموضوعنا هو حرصهم على استعمال تراتبية معيّنة، وذلك بإيراد نوعية من المعلومات تسمح بإيجاد تصنيفات مختلفة للعلماء؛ فهناك ما يسمح بترتيبهم حسب الأسبقية في دخول إفريقية (صحابة[9]، تابعين، تابعي التابعين...)، أو حسب الانتماء القبلي (أنصاري، دؤلي، قرشي، كتامي، هوّاري، غفجومي، لواتي، نفوسي، برنسي، نفزاوي...)، أو الانتماء العرقي باعتبار الإصرار على تحديد أصل أصحاب التّراجم (عربي، بربري، أندلسي، قرطبي، عراقي، فارسي، من السوس الأقصى، من العجم [من كذا]، من مصر، والده من كذا [صقليا]، من عرب البلد...).

وقد تتشابك المعلومات لتسمح بترتيبهم اجتماعيا حسب المكانة والوضعية الاجتماعية (صحابي، فاتح، تابعي، مولى...)، وكذلك قيميّا حيث تُحدّد قيمة العالِم من خلال عدد شيوخه. أو كذلك تحديد مدى علاقة العالِم بالسّلطة القائمة حسب الدّور الذي لعبه في مجتمعه أو الوظائف التي تولاها (قضاة، مُعلّمين، مؤدّبي الكتاتيب، أئمة الصّلاة...).

كلّ هذا يجعلنا نتبيّن مفهوما مُميّزا للنّخبة العلميّة من خلال كُتب الطّبقات الإفريقية: فالنّخبة تضمّ أولاً العرب الوافدين على إفريقية من صحابة[10] وتابعين، ثم يأتي بعد ذلك المحلّيون

سواء كانوا ذوي أصول عربية لكنهم وُلدوا بإفريقية أو بربرية من فقهاء مدينة القيروان ومُحدّثيهم وعُبّادهم ونُسّاكهم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ العُلماء ليس لهم نفس درجة العلم؛ فهناك تراتبيّة وتسميّات مُتنوّعة؛ فهناك الفقيه والمُحدّث والقاضي والعابد[11]، والزّاهد...؛ فالعالِم كمفهوم يضُمّ خليطا من شخصيّات يمارسون العلوم الدينية كلّ حسب ميولاته وإمكانياته، ويكفي ذكر شيوخ المُترجم له حتى لا يقع التّشكيك في علمه[12].

I- صورة العالِم البربري: إن الصورة التي استطعنا التحصل عليها بشيء من الوضوح هي تلك التي تبرز لنا من خلال زاوية معينة هي زاوية الاعتراف بالأصول البربرية لهذا العالم أو ذاك. تبعا لذلك هناك جوانب كثيرة يمكن إثارتها حول موضوع صورة العالِم البربري في هذه الكتب إلاّ أنّ ما نريد التركيز عليه هو جانب الاعتراف بالذات بهذا الأصل البربري للعالِم، وماهي تبعات ذلك من حيث النظرة إلى هذا العالِم وقد تبيّن لنا اعتمادا على المصادر التي اخترناها وجود موقفين من هذا الأصل يفضيان إلى صورتين رئيسيتين:

- صورة العالِم البربري الرافض لأصوله.
- صورة العالِم البربري المُعترِف بأصوله والمُعتَرَف له بها.

لقد لاحظنا في كتب الطبقات الإفريقية وجود علماء إفريقيين رفضوا انتماءهم إلى أصل بربري دون أن يعني ذلك إثباتهم أنهم من العرب؛ فالنّخبة إذن هي التي رفضت الانتماء البربري والتعبير عن هذا الرفض كان "مباشرا"- أي واضحا وصريحا ولا يدعو إلى الشكّ- عند بعض العلماء، إلا أنّ البعض الآخر لم تكن له نفس الشواغل فقد كان مُعترِفا بأصوله البربرية ومُعتَرف له بها وتمّ التّأكيد على ذلك سواء بالإشارة إلى الانتماء القبلي أو غيرها من الإثباتات.

1- صورة العالِم البربري الرافض لأصوله: نملك في هذا الإطار مثالين رئيسيين رغم أنهما تقريبا الوحيدين، وهما مثال كلّ من البهلول بن راشد وأبي إبراهيم بن العربي.

- البهلول بن راشد الحجري (ت.183هـ/799م): حاولنا في هذا العنصر التّدقيق في سيرة أحد علماء إفريقية وتبيّن صُورته لدى الآخرين، وهذا العالِم هو البهلول بن راشد المتوفي سنة 183 للهجرة.

ولم يقع في الحقيقة الاعتماد في اختيار هذا العالِم الإفريقي دون داع، ذلك أنه تبوّأ انطلاقا من مؤلفي الطّبقات أنفسهم المرتبة الأولى في عدد الأسطر المُخصصّة له مُقارنة ببقيّة المُترجم لهم، فبلغت قرابة 214 سطرا، كما تواتر اسمه في عدّة تراجم في أكثر من مناسبة، فيُقال هذا من أصحاب بهلول، وهذا توفي قبله أو ذاك بعده وذلك كان مُؤاخيه، وهذا سُمع منه...

وقد يُفسّر ذكر البهلول في أكثر من موضع من كُتب الطّبقات إضافة إلى التّرجمة التي خُصّصت له بأنّه كان يَحضى بقيمة كبيرة في المجتمع الذي عاش فيه، رغم أنه لم يصل بعلمه درجات تخوّله لِلَعب أدوار دينية فعلمه وفقهه قليل[13]، مع ذلك كانت صورته إيجابية في كتب الطّبقات بل أنّ شُهرته تجاوزت الحدود الجغرافية لإفريقية[14]، كما وقع اعتباره «رابع عباد الأرض»[15]، و«وتدا من أوتاد الأرض»[16].

وبالعودة إلى تفاصيل وفاته[17] نجد أن محمد بن مقاتل العكّي المُتسبّب في مقتله بعد أن ضَربه بالسّوط[18]، وكان خائفا من عِقاب الخليفة بعد اقترافه لذلك العنف الجسدي، إذ أنّ ثُلّة من الرّجال ارتأت شكواه إلى الخليفة: «...فلما بلغنا أن البهلول ضُرب بإفريقية تخلخل العسكر فأتينا بأسرنا إلى باب الخليفة فقال لنا الحاجب: ما بالكم؟ فقلنا قد جعلنا حوائجنا كلها في نصرة البهلول»[19]، ومن هنا تتجلّى ملامح الصّورة الإيجابية التي يحملها عامّة الناس عن البهلول بن راشد، التي يبدو أن لها تأثير في قرار السّلطة السياسية بالبلاد، وجواب الحاجب هو الذي لفت انتباهنا «فقال لنا الحاجب: اتقوا الله في دم العكي ليس يبلغ الخليفة أن العكي ضرب البهلول إلا قتله وكيف يُضرب البهلول بإفريقية إلا أن يكون أهل إفريقية ارتدوا عن الإسلام ولكن اصبروا فإن صح الخبر رفعت أمركم»[20]، وقد يدلّ قوله على أنّ إسلام البربر لم يكن مُتجذّرا فيهم وأنّ العُلماء كان لهم دور كبير في ثبات الإسلام بالمنطقة، ويُمكن أن يكون البهلول قد لعب دورا كبيرا في ذلك، فهذه المصادر تعترف بقدرته على التّبليغ ونشر تعاليم الإسلام بأيسر السبل. وهذا ما قد يُفسّر الصيت الذي كان يتمتع به والمكانة التي احتلّها في قلوب الناس حتى عند الخليفة. ولهذا قيل أنّ هذا العالِم وأمثاله كانوا «مُجَسّمين للصُّورة المثالية التي تحملها الطبقة الشّعبيّة عن العالِم التقي الذي يترجم عن رغبات الطّبقات الاجتماعية الضعيفة»[21].

ومع وجود هذه الصّورة الإيجابية للبهلول بن راشد التي صوّرها لنا كتب الطّبقات الإفريقية، وجدنا أنّ النّظرة لهذه الشّخصيّة كانت أحيانا سلبيّة، وندعم قولنا هذا بعدّة قرائن:

مثلا تلخّصت إحدى الرّوايات في أنّ إبراهيم بن الأغلب كان له ذات مرّة لقاء مع أحد تلامذة البهلول بن راشد[22]، وكان يُحاول أن يُعطيه مالا، لكن ذلك الشّخص الأعرابي رَفض قبول العرض المُغري، فأصرّ الأمير على زيادة المال للعالِم، وهذا دليل على أنه يريد استمالته فإن قَبِل عَطاءه فذلك يعني أنّه خضع له. ولم يجد الأمير في النهاية ما يقول له إثر غضبه سوى: «أفسدكم البربري»[23]. ويقصد هنا البهلول بن راشد، ويُحيلنا خطاب "أفسدكم البربري" إلى القول أنّ البهلول بن راشد قد تمكّن من التّأثير في طلبته وذلك بـــ"إفساد" عقيدتهم من خلال حثّهم على عدم الخضوع للسّلطان.

ومع تتبّعنا لجمل التفاصيل الواردة في ترجمة البهلول، لاحظنا أن مؤلفي الطّبقات لم يستطيعوا إخفاء تحاملهم عليه ضمنيا في أكثر من مُناسبة، فقدّموه بصُورة سلبية مُقَنّعة وذلك من خلال إيراد نعوت سلبية تستنقص من شخصه (مولى[24]، قذر[25]، مُرائي[26]...)، أو من خلال التقليل من علومه وقد استشهد أبو العرب برأي سحنون بن سعيد الذي «يقول: ما بلغ البهلول بن راشد شسع نعل علي بن زياد وضرب سحنون بيده إلى شسع نعله»[27] فهو عابد لم يرق لمرتبة العالِم[28].

يُكنّى البهلول بن راشد في كُتب الطّبقات بـــ"أبي عمرو"[29] وهي كُنية عربيّة، والقضية هنا هي حرص علماء إفريقية على التكنّي بكُنى عربية، والكُنية مثّلت وسيلة أولى رئيسية للمسلمين الجُدد من أصحاب الأسماء غير العربية من الاندماج في الجماعات العربية والتنصّل من الانتماءات الأصلية، وبالرجوع إلى أخبار البهلول بن راشد نجده يرفض الانتماء إلى أصل البربري.

وقد أوردت كتب الطّبقات حادثة تصوّر ذلك بوضوح فقد قيل أنّ البهلول أعدّ:«طعاما وأحضر له جماعة من أصحابه، فقالوا: "يا أبا عمرو، لم صنعت هذا الطعام، وليس عندك شيء يصنع لأجله الطعام؟" فقال: "إني كنت خائفا أن أكون من البربر، لما جاء فيهم من الحديث[30]، فسألت عن أصلي من يعلمه فأخبرت إني لست من البربر فأحدثت لذلك هذا الطعام شكرا لله

عزّ وجلّ، إذ لم أكن من البربر"»[31]. فالأحاديث المُشار إليها ضمنيّا هنا لا مجال للشكّ في أنّها موضوعة، ويمكن اعتبارها مظهرا رمزيا للرفض للعنصر البربري. وموقف البهلول منها يعكس القلق الاجتماعي المرتبط بالأنساب، باعتبار تأكيدها على التراتبيّة في وضعية غير العرب بالنسبة للعرب.

فهذا مثال على مدى تأثّر نفسيّة أفراد النّخبة الإفريقية المشكّك في أصلهم ويقول محمد الطالبي في ذلك: «لم يتصوّروا [البربر] مهربا آخر سوى إنكار نسبهم»[32]، وحسب تعبير جورج مارسيه «وصمة عار أن يكون الإنسان من أصل بربري، والتخلّص منه مصدر فرحة»[33].

وربّما تستبطن الأحاديث التي تذمّ البربر حقيقةً حَرِص مؤلفو الطّبقات على إخفاءها وهي تأكيدها على قيمة الذات – تبرير البحث عن الذات– فذمّ البربر قد يعني مدح ضمني للعرب، فالأحاديث تعكس بصفة غير مباشرة صُورة ايجابية عن العرب، وبالتالي هناك إشادة رمزية بـــ"الأنا" العربي الذي يرى في "الآخر" البربري أدنى منه منزلة ومكانة.

ونتبيّن أيضا من خلال إعداد البهلول بن راشد لوليمة لأصحابه صورة ضمنيّة عن ثراءه[34]، فمن يقدر على الولائم سوى الأغنياء، وقد وجدنا في ترجمة رباح بن يزيد ما يؤكد ثراءه فهذا أخا البهلول اسمه "بقيّة" يحدثّه عن البادية والمال[35] فالواضح أنه يمتلك أراضٍ تدرّ عليه أموالا طائلة. وهذا الثراء انعكس على مظهره الخارجي فقد «كان حسن الهيئة»[36]، يلبس «قلنسوة حبر وساجا طرازيا وقميصا تستريا ونعلا طائفيا»[37] وهي أثواب تُجلب من بعيد من الجزيرة العربية ومن اليمن، فالبهلول يضع لباس الشرفاء وربما قصده من ذلك فرض تميّزه وهيبته على الآخرين.

ونحن نعتقد أن الإطناب في سرد تفاصيل مُتعدّدة حوله وخاصة إيراد جملة من المواصفات السلبيّة الضّمنية التي نُعت بها، والحرص على التّشكيك في أصله وفي علومه بمثابة كليشيهات (des clichés) وقع اعتمادها بدقة لإخفاء الموقف التهجمي لمؤرخينا وهي دون شك لطمأنة أولئك الذين يربطون علاقات مع البربر[38].

– أبو إبراهيم بن العربي (ت.335هـ/947م): انفرد المالكي بترجمة لهذه الشخصيّة، ونحن نلاحظ أن هذه الشخصيّة رفضت بدورها انتماءها إلى أصل بربري ففي الحديث عندما قال

المالكي: «ذكر أنه لما حج ومعه عطية الجماجري لينتفع بصحبته فلما وصلا إلى برقة ومنها أصل أبي إبراهيم سأل عن نسبه بها، فعرف أنه من العجم فكتب إلى بعض إخوانه بالجزيرة كتابا فيه: قد كنت انتسب عندكم إلى البربر فتقصيت في بلدي عن نسبي فإذا بي من العجم، فنحمد الله تعالى إليكم الذي لم يجعلني من البربر»[39] وقد علّق المالكي قائلا: «وإنما خاف- والله تعالى أعلم- أن يكون من البربر لأحاديث رُويت في ذمّهم»[40]، الأخوّة التي ذُكرت هنا هي أخوّة إسلامية ولكن هذا لا يخفي التّفرقة العرقيّة الواضحة. إلاّ أنّنا مع ذلك نتساءل ما المقصود بالعجم إلى أيّ عجم، خاصّة ونحن نعلم أنّ البربر صُنّفوا من ضمن العجم[41]؟ هل هذا يدلّ على أنّ مصطلح الأعجمي في تلك الفترة يُقصي البربر أم هو مُجرّد تمويه عن الأصل؟

ويبدو أحيانا من خلال أسلوب الخطاب وحده الحدود الواضحة بين العُلماء، فأبو إبراهيم بن العربي قال :«قد كنت انتسب عندكم إلى البربر»[42]، وقد يدلّ هذا على الضغط النفسي التي كان يعانيه العالِم المتّهم بالنّسب البربري "فكنت" و"عندكم"، قد يعني هذا أننا أمام هويّتين مُختلفتين، فهو وعي بالنّقص رغم أنّ هناك رابط يجمع بين الطرفين وهو الإسلام، ومع ذلك فاللفظ المُستعمل يُفصح أنه هناك طرف محلّي لا ينضوي تماما في صُلب المجتمع العربي.

فهذا العالِم حاول بكلّ الطّرق إثبات أنه ليس من الجنس البربري فكنيته عربية "أبو إبراهيم" ولقبه "ابن العربي"، ولو دقّقنا جيدا في اللقب فهو يفضح ما يدور في فكره فهو عربي من خلال الكنية واللقب وحده، فهي صُورة ليس للرفض للانتماء للجنس البربري فحسب بل الحرص على الانتساب للعرب. فهي وسيلة لطمس الهويّة وتزييفها لأن المجتمع الذي أصبح فيه فَرض ذلك نتيجة للتّمايز العرقي بين العرب والبربر.

ومقابل هذه الصورة للعالِم الرافض للانتماء للأصل البربري- والتي جعلت القارئ يُشدّ إلى البحث في أصل العالِم وهويّته أكثر من علمه- أوردت لنا كُتب الطّبقات ترجمات لعُلماء من أصل بربري لفت انتباهنا أنّ نسْجها خضع لإيديولوجية معيّنة تجسّدت في محاولة مؤلفي الطبقات نحت صورة العالِم البربري بمنطق انتقائي غائي، ونتساءل هنا عن الغاية من وراء إعادة تشكيل صورة العالِم البربري؟

2- صورة العالِم البربري المُعترف بأصوله والمُعتَرَف له بها: استند مؤلفو الطبقات الإفريقية في تقديم بعض العلماء البربر إلى ربط الاسم أو الكُنية بالنسبة القبلية أو الإشارة صراحة إلى

انتماءهم إلى أصل بربري ولا نعرف إن كان ذلك استنقاصا لهم أم هي فقط وسيلة للتعريف بهم؟ وسيتمّ إبراز ذلك من خلال الأمثلة القليلة التي أوردتها لنا كُتب الطّبقات الإفريقية:

- أحمد بن نصر بن زياد الهوّاري البربري (ت. تقريبا 327هـ/939م): أضاف ابن ناجي للِقب هذا العالِم الذي يُكنّى بأبي جعفر واسمه أحمد بن نصر «ابن زياد الهوّاري البربري»[43]. وقد تعرّض ابن نصر لمحنة في حياته، فقد «ذكر أن قاضيا[44] (...) كانت له أحكام خطأ فكان أحمد ينبه عن خطئه ويتكلم في أحكامه فدخل القاضي على عبيد الله فقال: ها هنا رجل من البربر مطاع وله ذكر ونحن لا نأمنه (...) فوجه وراءه وسجنه وقيّده (...) فلما تبيّن لعبيد الله أنه ليس قبله شيء مما رمي به أمر بإفراجه»[45].

ونُلاحظ هنا صُورة هذا العالِم في نظر "الخاصّة" التي اتّخذت بُعدا تحقيريّا بمُجرّد تدخّله لتصحيح خطأ القاضي العراقي، الذي لم يَحتمل وغضب منه وعَمل على دخوله إلى السجن للتخلّص من مُنافسته، وليُردّ لذاته الاعتبار أمام مجتمع غير مُتجانس. ومن خلال هذا الأنموذج نُلاحظ أنّ الخاصّة المُقرَّبة من السّلطة الحاكمة بالمنطقة هي سلطة أجنبيّة قد لعبت دورا أساسيّا في تغيّر صُورة النّخبة البربريّة من صُورة حسنة إلى صُورة مُشوّهة، وخاصّة إذا كان هذا العالِم البربري ذا مذهب مُخالف للسّلطة الحاكمة، هذا ولا ننسى عامل تغير الظرفية التاريخية.

فالقضيّة هنا ذات بُعد مذهبي ذلك أنّ القاضي شيعي والمتدخّل مالكي، فقد حُبس تسعة أشهر ذلك أنه كان «يجتمع الناس إليه في مسجد رحبة القرشيين ويفتي بمذهب مالك فوجه إليه وسجنه بالمهدية وقيّده»[46]. وبالتالي قد ينخرط المؤلف في دفاعه على المترجم له نتيجة مذهبه الذي يتوافق معه، أكثر من تركيزه على أصله، وبالتالي فالصّورة هنا متغيّرة حسب ميولات المؤلّف المذهبيّة.

أما المثال الثاني من النّخبة البربريّة فهو مثال العالِم البربري المُصرّ على التّموقع داخل المجتمع العربي بإفريقية، وذلك من خلال المُجاورة في السّكن داخل المدن ثم السّعي إلى الاعتراف به كأحد أفراد الفئة المتعلّمة القادرة على إثبات وجودها، وسوف نحاول إبراز نظرة "الآخر" إليه ونظرته إلى نفسه هذا المثال يجسّمه:

- أبو الرّبيع سليمان بن سالم النّفوسي: عُرف البربري (ت.766هـ/1364م): يُقدّم ابن ناجي ترجمة لهذا العالِم البربري الذي خصّه بلقب البربري، وفي ذلك مُحاولة لتأكيد حقيقة انتسابه،

وقد تعرّض هذا العالِم الذي عاش في العهد الحفصي لِمحنة على الرغم من المكانة العلميّة التي قد شغلها في المجتمع الذي عاش فيه، ذلك أنه قيل: «لما عظم حاله وكبر جاهه حسد وعمل فيه وفي صاحبه الشيخ أبي حفص عمر ابن بركات الكناني رسم بالشهادة العادلة بأنهما زكراويا المذهب خارجان عن اعتقاد السنة(...) فلما وصلنا إلى قبر الشيخ أبي إسحاق الجبنياني وسلمنا ورحمنا قال الشيخ أبو الربيع: يا سيّدي أنا رجل غريب وردت على القيروان نطعم الطعام ونذب عن أهلها وعن وطنها فحُسدنا وعُمل فيّ رسم وفي صاحبي هذا بكذا وكذا بالباطل»[47].

فهذا العالِم كان يُريد أن يَفرض حاله في المجتمع الذي عاش فيه، لكن اعترضته مجموعة من العراقيل، فسَعى رغم ذلك إلى نحت مكانته في مجتمع أصبح يعتقد في البدع والخوارق وفي كرامات الأشخاص، وحسب رواية ابن ناجي اجتهد أبو الربيع هذا «وبنى زاوية بالقيروان من ماله حبّسها على من يسكنها من قرّاء القرآن وطلبة العلم وهي مُتّسعة منشرحة لا مثيل لها بالقيروان»[48]، فهذا العالِم عبّر بطريقة غير مُباشرة عن رغبته في الاحتكاك بالعرب في عاصمتهم والاتّصاف بصفاتهم إلى درجة بناء مكان للعبادة والدّراسة مُنافسا بذلك العرب المستقرّين بالمنطقة، ولكن مع مُحاولاته لتثبيت مكانته وقع الإدّعاء عليه ومواجهته مع ممثلي السّلطة آنذاك. ونعتقد أنّ هذه الصّورة عكست أساسا نظرة العالِم البربري لنفسه الذي يحاول بكلّ الطرق إثبات موقعه في مجتمع عربي يركّز على قضيّة الأصول.

ولكن النظرة للعالِم البربري ليست دائما سلبية وهذا ما نستشفه من خلال ما يقوله ابن ناجي في شأن سليمان البربري هذا. ويتعلق الأمر بما وجده هذا الأخير من معاملة من طرف السلطة الحفصيّة مُمثّلة في شخص الوزير الكبير ابن تافراجين فقد ورد عند ابن ناجي متحدّثا عن سليمان البربري وصاحبه المذكور آنفا أبو حفص عمر الكناني قوله: «(...) وكبر حالهما بتونس [سليمان البربري وأبو حفص عمر الكناني]، وأنزلهما ابن تافراجين عنده، وأمره إذا خرج يركب هو وصاحبه معه ويكون أحدهما على يمينه والآخر عن شماله ليعظما في عيون الفقهاء بتونس»[49]. وقد لا نستغرب كثيرا هذا الموقف من السّلطة وهذه الصّورة الايجابية لأن من جسّدها هو وزير يعود نسبه إلى عائلة موحّديّة من أصول بربرية، كما لا ننسى أن سليمان اتّهم بالخروج عن السنّة ونحن نعلم أن أهل السنّة قد نظروا كذلك إلى المذهب الموحّدي على أنه خارج هو الآخر عن السنّة.

فتبدو نظرة مؤلفي الطبقات للعلماء البربر إيجابية لو تعلّق الأمر بأنّ مذهب العالِم البربري يتوافق مع مذهب السّلطة، ويعني هذا أنّ التعصّب المذهبي قد يغلب أحيانا على التعصّب العرقي.

وقد وجدنا مثالا آخر تجسّد في شخص أحد العُلماء أكّدت الرّوايات انتماءه إلى أصل بربري وهو عالم كانت صورته إيجابية بالمشرق وتواصل التنصيص عليها عند مؤلفي إفريقية، ولكن قد لا تخلو الترجمة المُخصّصة لهذا العالِم من صورة سلبية ضمنية احتوت على موقف نقدي غير مُصرّح به من قِبل مؤلفي الطبقات وهذا العالِم هو:

- عكرمة مولى ابن عباس[50] (ت.105هـ/724م): وهو عالِم عاش في نهاية القرن الأول للهجرة وكان مُعاصرا لمالك بن أنس، وقد تحدّث عنه أبو العرب قائلا: «من بربر إفريقية وذكر غيره أنه من سبي إفريقية اشتراه ابن عباس»[51]، وقد أورد المالكي أكثر تفاصيل حوله حيث ذكر أنه «كان كثير الرّواية عن مولاه وعليه معتمده(...)، قال عباس الدوري: قلت ليحي بن معين: مالك بن أنس كره عكرمة؟ فقال: نعم(...) قال قتادة: أعلم الناس بالتفسير عكرمة(...)؛ فممن وثقه وأثنى عليه يحي بن معين وعلي بن المديني وأبو الحسن الكوفي وإسماعيل القاضي، وضعّفه غيرهم لكنّهم متفقون على حفظه ومعرفته بالعلم وتفسير القرآن دخل عكرمة إفريقية وأقام بالقيروان وبث بها العلم وكان مجلسه في مؤخر جامع القيروان في غربي الصومعة»[52].

لم ينشأ عكرمة بإفريقية كبقيّة العُلماء فهو مولى عاش بالمشرق وعُرف باسم مولاه وانتسب إليه فهو ابن "العباس" الذي قام بتنشئته وتعليمه. ويهمّنا هنا الإشارة إلى نظرته إلى نفسه، حيث كان له اعتداد كبير بذاته ليس لأنه من أصل بربري بل لأنه يحمل عِلْم ابن العباس سليل البيت النبوي مولاه. فهو يرى نفسه وعاء علم وافر، حيث انتفى فيه اسمه وشخصه لفائدة العلم الذي أخذه وأصبح هو بطاقة تعريفه الوحيدة، ولهذا رفض أن يبيعه ابن مولاه فقال له: «"أتبيع علم أبيك؟" فاسترده واعتقه»[53].

وقد قدّمت كتب الطبقات الإفريقية عكرمة بصورة إيجابية حيث صُنّفته ضمن الطبقة الأولى من عُلماء إفريقية، كما ضمّنت ترجمته جملة من المواصفات الإيجابية ركّزت على علومه بالأساس فقد «أدخله مالك في "موطئه" وكنّى عن اسمه»[54]، وقيل أنّه «أعلم الناس

بالتفسير»[55]، كما اتفق العلماء بالحديث «على حفظه ومعرفته بالعلم وتفسير القرآن الكريم»[56]، وقيل أنه «أشعر الناس وأعلم الناس»[57]، وهذا التأكيد على علمه فيه اعتراف ضمني بقيمته كعالِم. ونعتقد أن السبب الأساسي لتقديمه بصورة إيجابية هو صورته المشرقة بالمشرق.

ولكن هذا لم يمنع من إظهار صورة سلبية عنه، وللتّنصيص على ذلك تمّت الإشارة إلى كره مالك له[58]، وتفسير ذلك أنه عند دخوله إفريقية «أقام بالقيروان وبثّ بها العلم وكان مجلسه في مؤخر جامع القيروان في غربي الصومعة»[59]، وهي رواية منتقاة بدقة تبيّن الغاية من وراء دخول هذا العالِم إلى إفريقية وهي نشر المذهب الاباضي بالمنطقة، وهذا التضمين لموقف مالك عَكَس موقف غير مصرّح به لمؤلفي الطبقات وهو المُعاداة لكلّ مذهب خارج عن السنّة خاصّة وأنها مصادر سنّية.

وعلى العموم تعتبر صورة عكرمة إيجابية وهي تنطبق على عديد العلماء من أصل بربري على غرار:

- محمد (ت.299هـ/912م) وعبد الرحمن ابنا يسوتا: نُشير إلى أنّنا لم نجد تفاصيل وافية عنهما ما عدا التأكيد على أصلهما البربري، دون التّدقيق في سرد التفاصيل حولهما: «قال أبو العرب: يقال إن أصلهما من البربر...، مات معاوية الصمادحي وابن يسوتا في يوم واحد فقدمت جنازة معاوية قال. وقال أحمد بن يزيد: مات ابن يسوتا سنة تسع وتسعين ومائة يعني محمد بن يسوتا. وفيها مات معاوية الصمادحي وصلى عليهما أبو العباس عبد الله بن ابراهيم ابن الأغلب»[60].

كما اعتمد مؤلفو الطّبقات في العديد من التراجم التّسمية كصُورة ضمنية للتّفرقة بين العُلماء والاستدلال عليهم، حيث أنّ العديد من الترجمات تمّ فيها الاكتفاء بإيراد اللقب القبلي (كتامي، هوّاري، زناتي، غفجومي، لواتي، نفوسي، برنسي، نفزاوي...)، وهم فئة من العُلماء الذين لم يُخصّوا بتراجم مُطوّلة أو مُفصّلة، فهنا تبدو الضبابية الواضحة في التعريف بالعالِم البربري أحيانا.

ومؤلفي الطبقات لم يحافظوا على نفس النسق التفاضلي للتمييز بين العلماء، فقد اختلف طرق التعريف بالعالِم البربري من التركيز على أصله، إلى الإشارة إلى انتماءه القبلي، أو إيراد

صفته الاجتماعية، أو نسبته إلى بلد ولادته (السوسي، الفارسي، الكندي، السرتي، الأندلسي، الهمداني، الاطرابلسي، التاهرتي...)، ثم تَعدّته إلى ذكر لمهنة العالِم للاستدلال عليه فتسمية العالِم تضمّنت صفة وظيفية مثل (القطّان، الصوّاف، العسال، الفتال، المعلم، اللغوي، المؤذن، صاحب الوثائق، الفرّاء، الفخار، السقاء...) وهي تسميات خالية من إشارات تدلل على أصل العالِم أو حقيقة انتماءه ونحن لا نستبعد أن نجد من بينهم علماء محليين من أصل بربري.

لماذا لا يُمكن أن نتحدث حينئذ عن إعادة بناء لصُورة البربر من قبل مؤلفي الطّبقات، وبالتالي عن نقد أو ربّما تصحيح للصُورة التي شكّلتها المصادر المشرقيّة خاصّة وأنّ مؤلفي الطّبقات كانوا يعيشون في إطار مجتمع يَضمّ البربر.

هذا فضلا عن أن صورة العالِم البربري هي صورة تطوريّة متفاعلة مع الظرفية التاريخية ومع اهتمامات العصر وقد أمدتنا كتب الطبقات بترجمة لأحد العلماء البربر الذي أفحص عن رغبته التملّص من كلّ شيء يربطه بجذوره منها بلده البربري وماله، وليس ذلك بسبب أصله البربري بل بسبب تزهّده وهذا العالِم هو:

- أبو الفضل العباس بن محمد الصوّاف الغدامسي (ت.349هـ/961م)[61]: تجاوزت التّرجمة المُخصّصة لهذا العالِم 200 سطرا، تضمّنت تفاصيل عن حياته الشّخصية والاجتماعية- لم نجد فيها الصورة المعهودة للعالِم التي تدل على ممارسته للعلم فقط إشارة دون تفصيل في سياق رواية أن له مجلس علم[62]. فنحن نعرف اسمه، والمدينة التي وُلد ونشأ بها [غدامس]، ووظيفته عند دخوله المنستير [كان يقوم بغسل الميض، ثم انخرط في خدمة المرابطين]، وصفاته الأخلاقية [بار بوالديه، عصى الله[63] مرات، غضب ثلاث غضبات...]، وحالته الاجتماعية [فهو فرد وحيد في عائلته...] وعلاقته بالسّلطة [يتجنب الالتقاء بالسلطان...]. ونتساءل هنا عن أسباب تقديم كلّ هذه المعطيات حول هذا العالِم؟

فقد قدّم المالكي هذا العالِم بصُورة تقديرية ركّزت على أخلاقه مع عامة الناس أوّلا فهو سيّد العابدين، ذو سخاء ومروءة، كثير الصدقة والمعروف، رقيق القلب، سليم الصدر...، وأخرى خوارقيّة فقد ارتبطت بشخصه كرامات وخواطر: يجيبه عمر بن الخطاب من قبره المجاور للرسول، يأتيه الخضر، دعائه مستجاب...

فربما المُراد من الإطناب في سرد التفاصيل حول هذا العالِم هو تبليغ صُورة إيجابية عنه. فقد أورد المالكي خبره كالآتي «سئل رحمه الله عن السنة التي سكن فيها بالمنستير، فقال قدمت من غدامس إلى سوسة (...) وكنت حججت (...) من بلدي وأبواي حيّان، فلما ماتا رحلتُ إلى المنستير(...) استعمل نفسه في غسل الميض (...) وكان يخدم المرابطين (...) قال أبو الفضل الغدامسي: سألت الله عز وجل في شيئين فأعطانيهما سألته أن يترع من قلبي حب غدامس فترعه (...) قال أبو محمد بن أبي زيد (الفقيه) بلغني أن ابن عم له بغدامس توفي وليس له وارث غيره وترك جنانا وغلاما فيه محافظا على صلواته من الأتقياء فقال: أشهدكم أنه حر وأن الجنان عليه صدقة»[64].

نلاحظ من خلال هذه الرواية أنّ هذا العالِم ترك بلده غدامس[65] مباشرة إثر وفاة والديه وهو ما يدل على برّه بوالديه وهي صفة أخلاقية تعكس مدى صبره ونقاء قلبه، والميزة الأهم لهذا العالِم هي تمنّيه أن يترع الله من قلبه حبّ غدامس، وبالتالي أبدى رغبته في إلغاء جانب من عواطفه بمحو جزء من ذاكرته الذي يتعلق بماضيه، وذلك بهدف التفرغ التام لممارسة دينه والتقرب من الله دون أن يثيره حنين بلده.

وقد أكّد المالكي على تزهّد هذا العالِم في أكثر من مناسبة فقد كان بإمكانه أن يكون بكلّ يُسر من الأثرياء ولكنه فضّل أن يستقرّ بالمنستير فقدم خدماته لمرابطي الحصن، وهو ما يعكس صورة إيجابية عنه تتضمن الصبر والقوة والزهد والتقوى. ويبدو أنها صفات يقدرها مؤلفو الطبقات وفيها تمييز لفئة من العلماء على آخرين، وهذا يعني وجود تراتبيّة في صفوف العلماء أنفسهم. ولكن تصوير كيفية خدمته للمرابطين من حمل للحطب، والعجن، والخبز... وهي مقارنة ربّما تضمّنت سخرية ضمنية من اختياره للوضاعة على الوجاهة. فبدت الصّورة هنا مزدوجة قد يُفهم منها احتقار ضمني وربما استهزاء بقيمة هذا العالِم وخياراته خاصّة وأنّ تلك الخدمات فيها امتهان لشخصه.

ومّما وَرد سلفا يُمكننا استنتاج عدّة نقاط:

*أولا: تنتفي عن النّخبة البربريّة من خلال كُتب الطّبقات الأفضليّة العلميّة في صفوف البربر، فقد يتساوى العالِم البربري بالعامّي من بني جنسه، في حين مُنحت الأفضليّة للعالِم العربي

مُقارنة بالعامي من بني عرقه (الإشارة إلى الأحاديث التي تذمّ البربر وقضيّة رفض الانتماء للأصل البربري).

*ثانيا: لم تُورد كُتب الطّبقات الصّورة المتغيّرة للعالِم البربري علنا، رغم أنّها كانت صُورة متبدّلة حسب الظرفيّة التّاريخيّة، والسّلطة السياسيّة والمذاهب الدّينية.

*ثالثا: لم يقع الإشارة إلى وظائف سياسية مُختصّة بالعُلماء البربر فليس لهم أي دور في السّلطة ما عدا أدوارهم في المجتمع من قبيل المشاركة في الحياة الدينيّة وفي الدّورة العلميّة ونعتقد أنه نوع من الإقصاء المقصود من طرف السّلطة السياسية بالبلاد.

*رابعا: العُلماء الذين ذُكروا في طبقات إفريقية كان معظمهم من المستقرّين بمجال بالقيروان، وكان لهم رصيد علائقي ضخم مع عامّة الناس ومكانة اجتماعية مميّزة في مجالهم الجغرافي، وقد تمّ التأكيد على أصلهم البربري أو اتهامهم به، فهناك حدود واضحة بين علماء إفريقية: قبلية (اللقب القبلي) أو عرقية (بربر)، أو وظيفية... ما يهمنا الإشارة إليه هنا أن بعض العُلماء البربر بإفريقية لم يهاجروا من أوطانهم ولكن هاجروا بأصولهم وأنسابهم مع أنهم لم يخرجوا من مجالهم، فهي هجرة نفسية كان يعاني منها العالِم البربري.

*خامسا: الصّورة المُقدّمة هي صُورة مزدوجة: تبدو ظاهريا ايجابية ولكنها قد تستبطن صُورة سلبية غير مُصرّح بها.

*سادسا: معظم العُلماء البربر الذّين وقع تخصيص تراجم لهم هم من العُبّاد وليسوا من المشهورين بالعلم: البهلول "عابد بلده"، أبو إبراهيم العربي "المتعبد"، أبو الفضل العباس بن محمد الصوّاف الغدامسي "المتعبد"... والظاهر أنّ العابد أقل قيمة ومرتبة من العالِم، فتسمية هؤلاء العلماء بالعبّاد عكس في الواقع صورة تبخيسيّة عنهم.

الخاتمة: لم تُول كُتب الطّبقات الإفريقية عنايتها بالنّخبة المحليّة البربرية، فجاءت الترجمات محدودة، وقد ينمّ هذا عن تجاهل مقصود لهذه الفئة. وهذا التّجاهل يمكن اعتباره صُورة في حدّ ذاته، فهو يخفي وراءه الهدف الأساسي من تأليف هذه الكتب وهو التّرجمة للعالِم العربي وليس العالِم المحلّي البربري. فهي صُورة مُنحازة بما أنها نتاج النّخبة العربيّة العلميّة، وهي نُخبة مُتعصّبة لجنسها العربي تحكّمت فيها عقدة "الأنا العربي" الذي يرى في ذاته أفضليّة وتميّزًا على بقيّة الأجناس.

وقد اتّصفت المعلومات الواردة في التراجم المُخصّصة للنّخبة البربريّة بصبغة انتقائية لم تخلو من إيديولوجية معيّنة، تمّ ترتيبها في شكل ألفاظ مُنمّقة وكلمات مشحونة بالإيحاءات والرموز. وتبرير ذلك هو أن مؤلفي الطّبقات كانوا يعيشون في إطار مجتمع يَضمّ البربر. فالنّخبة الإفريقية تضمّ من مكوّناتها "الأنا" العربي لذلك كان أسلوب مؤلفي الطّبقات فيه مقاطعة للأسلوب المباشر المعادي الذي عهدناه في المصادر المشرقيّة الذي قدّم صُورة قاتمة واضحة.

هوامش البحث:

1– أنظر حول كتب الطبقات:

Gilliot (Gl.), «ṭabaqāt», EI2, T.X, Leiden, Brill, 1998, pp.7-10; Hafsi (I.), « Recherches sur le genre "Tabaqat" dans «la littérature arabe», Arabica, t. XXIII .1976, pp.227-265 et t. XXIV, 1977, pp.150-186;

ابن حمادي (عمر)، "كُتب الطّبقات ومشاكل استغلالها في أبحاث الديمغرافية التّاريخية"، جماعي: الديمغرافية التّاريخية في تونس والعالِم العربي، سلسلة مراجع، دار سيراس للنشر، المعهد الأعلى للتربية والتكوين المستمر، 1993، ص.5–25.

2– المالكي (أبو بكر عبد الله)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهّادهم ونسّاكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج.II، 1981، ص.354.

3– أبو العرب التميمي (محمد بن أحمد)، طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق محمد بن أبي شنب، المدرسة الثعالبية، الجزائر 1914.

4– المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره.

5– ابن ناجي (أبو القاسم)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، المكتبة العتيقة، تونس. ج.I: تحقيق إبراهيم شبوح، تونس 1993؛ ج.II: تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، محمد ماضور، تونس، د.ت.؛ ج.III: تحقيق محمد ماضور، تونس 1978؛ ج.IV: تحقيق الأخوين مجذوب، تونس، د.ت.

6– مازيغ (محمد الصادق)، "بعض المصادر النفيسة لتاريخ إفريقية والقيروان، أو معالم الدباغ وابن ناجي وأصولها القيروانية"، مجلة الجامعة، مج.I، عدد2، أوت 1937، ص.54.

7– مثل طبقات: أبي زكريا الورجلاني (ت. 474هـ/1081م)، والدرجيني (670هـ/1271م)، والشماخي (928هـ/1522م).

8– ينتمي أبو العرب إلى عائلة من الأرستقراطية العربيّة التي استقرّت بالقيروان والتي تنتمي إلى قبيلة تميم. أما المالكي فلا توجد تفاصيل وافية عن حياته، فلا نعرف مثلا إن كان من أصل عربي أم لا! وقد نشأ المالكي في بيت علم، فتشبّع منه، وعُرف هو وأبوه أنهما من كبار روّاة العلم والتّاريخ بإفريقية. أما ابن ناجي فيعود إلى أصل عربي من قبيلة "تنوخ".--- 9– ونجد من الصحابة بعض الفاتحين العرب أمثال: عبد الله بن سعد بن أبي سرح، ومعاوية بن حديج، وعُقبة بن نافع.

10– نعتقد أنه من بين أسباب تصنيف الصحابة الذين دخلوا إلى إفريقية ضمن فئة العُلماء هو أنهم كانوا ناقلين لأحاديث الرسول، فضلا عن أنهم كانوا علماء بكتاب الله وبالتفاسير وبالسُنّة.

11– قد لا يكون العالِم عابدا والعابد عالما ومع ذلك صُنّفوا ضمن فئة العُلماء «... يقولون ان الدباغ عالِم وهو أولى بأن يسمى عابدا لكثرة حنانه وسمته وسكوته ولينه ووظائه وعلمه، وأبو إسحاق [السباني] يسمى عابدا وهو أولى بأن يسمى عالما لأنه كان يدري العلم ويعرفه ويتذاكر العُلماء بحضرته وفي مجلسه...». أنظر: ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره، ج.III، ص.64.

12– قد يكفي أن يُذكر عدد الشيوخ الذين تتلمذ على أيديهم العالِم حتى يقع ضمّه إلى فئة العُلماء، وإن لم تتوفر فيه تلك الشروط فسيتم إقصائه والتشكيك في علمه: «... ولعل هذا الشيخ لم يكن عالما لأنهم لم يذكروا على من قرأ، وان كان عالما فما ذكره ضعيف». أنظر: ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره، ج.III، ص.75.--- 13– المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج.I، ص.203.

14– قيل أن صيته وصل مثلا إلى خراسان، فقد راسلته ذات مرّة امرأة ماجنة من أهل "سمرقند" من "خراسان" تطلب أن يدعو لها حتى يُديم الله توبتها. أنظر: أبو العرب، الطّبقات، مصدر سبق ذكره، ص.55.--- 15– نفس المصدر، ص.55.

16- ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره، ج.I، ص..265

17- أمر العكّي بضرب البهلول ابن راشد بالسّوط لأنّه عارضه عندما أراد بعث السلاح والنحاس والحديد للطاغية (ملك الرّوم). أنظر: المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج.I، ص.212-213.--- 18- أبو العرب، الطّبقات، مصدر سبق ذكره، ص.59-60؛ المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج.I، ص.214.--- 19- نفس المصدرين السابقين، نفس الصفحات.--- 20- نفس المصدرين السابقين، نفس الصفحات.

21- المسعودي (محمد مهدي)، العُلماء والمعلمون بالمجتمع المغربي في القرون الإسلاميّة الأولى، سلسلة علوم التربية عدد4، تونس 1993، ص..51

22- ترجمة أبو خالد عبد الخالق المتعبد يعرف بالقنات، والرّواية جاءت بالتفصيل كما يلي: « قال وحدثني أبو عثمان قال حدثني من أثق فيه أن إبراهيم ابن الأغلب أرسل إلى عبد الخالق فجاءه وكان عبد الخالق رجلا طوالا ادم غليظ الشعر يلبس عمامة كأنّها شقة، فقال له الأمير إبراهيم بن الأغلب: بلغني أنك من العرب وأن لك عيالا فخُذ هذه المائة دينار. فقال له عبد الخالق: أنا عنها غني فقال إبراهيم: زيدوه مائة أخرى فقال عبد الخالق: لو كان بي حاجة لكان في المائة كفاية فلم يزل يقول: زيدوه وعبد الخالق يكلمه بالكلام الأول حتى بلغ خمس مائة. فقال له إبراهيم بن الأغلب: أفسدكم البربري والله لو أدركته لجعلته يرقص خلفي يعني إبراهيم بن الأغلب بهلول بن راشد. قال عبد الخالق: فأحسست شعري خرج من عمامتي ثم أقبلت عليه فقلت: والله لو أدركته لكنت أهون عليه من هذا الطين الذي يعجن بين يديك وكان بين يدي إبراهيم طين يعجن لمرمة». أنظر: أبو العرب، الطّبقات، مصدر سبق ذكره، ص.66؛ المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج.I، ص.328-329؛ ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره، ج.II، ص..28

23- نفس المصدرين السابقين، نفس الصفحات.

24- «منهم البهلول بن راشد الحجري الرعيني، مولى لهم». أنظر: المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج.I، ص.200.

25- مع الصيت الإيجابي الذي تمتع به البهلول بن راشد نجد بعض الروايات تشير إلى أن له صيتا يمنعه حتى من الدخول إلى بعض المناطق مثلما حدث ذات مرة وذلك بحضوره جنازة ولكن أغلق باب الربيع دونهم والقول يعود إلى فاضل رجل من بني كامل فقال:«فقرعنا الباب فقال البواب من هؤلاء فقلنا بهلول وأصحابه فجعل بهلول بهلول الكذر يعني القذر ورددها»، وهذا يدعو فعلا للحيرة فمن ناحية يقع تقدير هذا الرجل ومن ناحية ثانية يقع شتمه والنظر إليه على أنه قذر. أنظر: أبو العرب، الطّبقات، مصدر سبق ذكره، ص.57.--- 26- المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج.I، ص.210.

27- أبو العرب، الطّبقات، مصدر سبق ذكره، ص.251.--- 28- ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره، ج.I، ص.265.

29- أبو العرب، الطّبقات، مصدر سبق ذكره، ص.49.--- 30- من هذه الأحاديث: «قسم الله الخبث على سبعين جزءا فجعل في البربر تسعة وستين جزءا والثقلين جزءا واحدا. ويُروى عن شيخ ثقة من أهل الإسكندرية أن سليمان بن داود صلى الله عليهما أرسل بربريا مع شيطان في حاجة فرجع الشيطان يتعوذ بالله عز وجل من البربر». أنظر: المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج.II، ص.354.

31- أبو العرب، الطّبقات، مصدر سبق ذكره، ص.58؛ المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج.I، ص.209-210؛ ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره، ج.I، ص..273

32- الطالبي (محمد)، الدّولة الأغلبية، تعريب المنجي الصيادي، مُراجعة وتدقيق حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط. ثانية، 1995، ص..24

33- مارسيه (جورج)، بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمود عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف بالإسكندرية، القاهرة 1991، ص.79.

34- Mansouri (M.T), « Les 'Ulamā' et la propriété foncière en Ifrīqiya (I^er-III^e/VII^e-IX^e siècles) », Revue des Mondes Musulmans et de la Méditerranée (Aix –en Provence), N°126, 2009, pp.173-183.

35- «...بلغني عن البهلول بن راشد أنه كان يوما جالسا وعنده رباح بن يزيد: إذ أقبل بقية أخو البهلول من البادية، فجعل يلهج بذكر البادية، وبهلول يتقلى اغتمامها برباح، لأنه يعلم أنه لا يحتمل ذكر الدنيا، فلما أكثر من ذلك، نُهض رباح، وجعل يقول لبهلول: سقطت من عيني، تُذكر الدنيا في مجلسك ولا تنكر ولا تغيّر؟». أنظر: المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج.I ، ص.303.

36- المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج.I ، ص.201.--- 37- نفس المصدر، ص.214.

«الطَّرَازُ: ...ما ينسج من الثياب للسلطان... بخيوط الحرير أو بأسلاك الذهب أو الفضة». أنظر: المُعجم الوسيط، مطبعة مصر، ج.II، 1961، ص.560.

حبر: « (الحبرة) ثوب من قطن أو كتان مخطط كان يصنع باليمن وملاءة من الحرير كانت ترتديها النساء بمصر حين خروجهن (ج) حبر». أنظر: المُعجم الوسيط، ج.I ، 1960، ص.152.

ساج: «(ساج) سوجا وسواجا وسوجانا جاء وذهب وسار رويدا والحائك النسيج بالمسوجة سوجا رددها عليه». أنظر: المُعجم الوسيط، ج.I ، 1960، ص.462.

طائفيا: نسبة إلى الطائف بالجزيرة العربية.

38- شهبون (ادريس)، "العرق وظاهرة الاستعمار: نموذج البربر من خلال "تاريخ" ستفان كزيل"، دراسات في تاريخ المغرب، حوليات كلية الآداب والعلوم الانسانية I، عين الشق- الدار البيضاء، العدد السابع، 1990، ص.222.--- 39- المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج.II، ص..354

40- نفس المصدر.--- 41- أنظر تحديد اليعقوبي لأصناف العجم فهم ليسوا فقط من أهل خراسان، ولكن يافريقية العجم هم من البلد من البربر والرّوم وأشباه ذلك. أنظر: اليعقوبي، كتاب البلدان، دار صادر، بيروت 1892، ص.348.--- 42- المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج.II، ص..354

43- ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره، ج.III، ص.6.--- 44- هذا القاضي هو إسحاق بن أبي المنهال من قضاة العراق. أنظر: نفس المصدر.

45- المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج.II، ص.184؛ ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره، ج.III، ص.6.

46- ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره، ج.III، ص.8.--- 47- ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره، ج.IV، ص.159.

48- نفس المصدر، ص.162.--- 49- نفس المصدر، ص..161

50- عكرمة: هو أبو عبد الله عكرمة (ت.105هـ)، أحد فقهاء مكة، من التابعين الأعلام ، أصله من البربر كان أحد موالي عبد الله ابن العباس الذي اجتهد في تعليمه، ولما مات أعتقه ابنه علي، وكان يميل إلى المذهب الخارجي. أنظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مج.I، بيروت، لبنان، د.ت. ص.130.

51- المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج.I، ص.146.--- 52- نفس المصدر، ص.145-146.

53- المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج.I، ص.146. --- 54- نفس المصدر، ص.145.--- 55- نفسه.--- 56- نفسه.

57- نفس المصدر، ص.146.--- 58- نفس المصدر، ص.145.--- 59- نفس المصدر، ص.146.

60- أبو العرب، الطّبقات، مصدر سبق ذكره، ص.74-75.--- 61- المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج.II، ص.440.

62- نفس المصدر، ص.451.--- 63- نفس المصدر، ص.440-447 بتصرف.

64- أنظر: هامش رقم (6) بقلم حسين مؤنس من كتاب رياض النفوس، ج.II، ص.440. غدامس : مدينة بربرية قديمة وهي واحة ومركز تجاري وحضاري ليبي هام تبعد عن طرابلس إلى الجنوب الغربي بنحو 495كم.